٢٩ ــ حرج

لست أدرى أبلغ المصريون فى يوم من الأيام ما بلغوه الآن من دقة الحس ، وحدة المزاج وضيق الصدور ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو أنهم قد انتهوا من هذا كله الآن إلى حيث أصبحوا يتأذون بكل شىء ، ويتأملون لكل شىء ، ويخرجهم عن أطوارهم أيسر الأمور شأنا ، وأقلها خطرا . وتوشك الصلات بينهم أن تتعرض لفساد شديد ، لأنهم ضعفوا حتى عن احتمال الدعابة والابتسام للفكاهة والمزاح ! ومصدر هذا فيما يظهر ما يلقونه من هذا الحرج السياسى والاقتصادى الذى طال عليهم أمره ، وثقل عليهم عبئه ، والذى يحرصون أشد الحرص على أن يثبتوا له ، ويصبروا عليه ، ويقاوموه مقاومة الرجال الذين يعرفون كيف يلقون الخطوب ، ويثبتون لحادثات الأيام ، فهم يستنفدون أو يكادون يستنفدون جهودهم كلها فى احتمال الآلام السياسية والاقتصادية دون أن يظهر عليهم ضعف فى الرأى ، أو خور فى الطبيعة ، أو انحلال فى العزيمة ، ودون أن يطمع فيهم الأجنبى أو تطمع فيهم الوزارة القائمة .

وهم يريدون أن يظهروا كرماء أعزاء أمام الإنجليز وأمام هذه الوزارة ، ويريدون كذلك أن يظهروا أعزاء فيما بينهم ، يحتملون ما يحتملون من أثقل ضروب الحرمان الاقتصادى دون أن يظهر بعضهم على خفايا بعض ، ودون أن يحس بعضهم رثاء أصدقائه له ،أو عطفهم عليه ، أو شعورهم بما هو فيه من ضنك وضيق . وإذا بذل الإنسان هذا الجهد العنيف ليأخذ نفسه باحتمال مالا يحتمل ، والصبر على ما لم يألف الصبر عليه ، وإذا طال به هذا الأمر فأنفق فيه الأشهر والأعوام دون أن يجد منه مخرجا ، أويتخفف ولو قليلا من بعض أثقاله ؛ كان خليقا أن تضعف مقاومته لما دون ذلك من الأمور ، مثله فى ذلك مثل الصائم الذى يشق عليه الصوم ويضنيه ويكلفه ألوان العناء فينفق الجهد كل الجهد فى احتمال هذه المشقة والثبات لهذا العناء حتى يتم صومه ، ولكنه

---

(١) ٢٩ ــ ٥ ــ ١٩٣٣ .

يضعف عن مقاومة أشياء أخرى غير الصوم ، فهو سريع الغضب ، دقيق الحس ، حاد المزاج ، سيىء الخلق بوجه عام .

هذه حال يظهر أنها عامة الآن فى مصر ، تلحظها عند كثير من أنصار الوزارة ، وتلحظها عند كثير من خصوم الوزارة ، وتلحظها عند قوم لا ينبغى أن يكونوا من أولئك وهؤلاء . ولعلك تجد هذه الظاهرة أقوى فى البيئات الوزارية منها فى أى بيئة أخرى . فقد رأيت ما حدث فى البرلمان ، ومن المرجح أنك سترى أمثاله كثيرا . ستراها عند النواب ، وعند الشيوخ وعند الوزراء أنفسهم . نائب يهم بإعلان رأى فيضيق به المجلس حتى يوشك أن يبطش به ! ثم لا يقبل منه صمتا ولا دفاعا فى الصحف ، ولا يرضى منه إلا بالاعتذار ! ونائب آخر يهم بالدفاع عن رأى فيضيق صدره ، وينطلق لسانه ، وينال المجلس والوزارة بما لا يحبان ، ويضيق به المجلس ، ويضيق هو بالمجلس فينصرف ثائرا مغضبا . ويمضى المجلس فى ثورته وإنكاره حتى يضطر الرئيس إلى رفع الجلسة . فإذا سكت الغضب عن النائب المعتدى والمجلس المعتدى عليه ؛ أعيدت الجلسة فكان الاعتذار وكان الغفران ! ونائب آخر يهم بنقد الوزارة فلا يتحرج من أن يصفها بالسفه ! ويضيق به صدر الوزارة فلا تذود عن نفسها ، ولا تدفع شدة بشدة ، ولا نقدا بنقد ، ولكن أحد أعضائها يصيح بالنائب أن اسكت ! فإذا لم يفعل انصرف الوزراء وتركوا الميدان مغاضبين ! وقد ثار المجلس واضطرب فكثر الصياح وخفقت الأقدام ، وامتدت الأيدى ، ثم ترفع الجلسة ، ويهم بعض النواب بجمع آراء أصحابه على طرد هذا النائب ، ثم يسكت الغضب عن القوم جميعا ، فيكون اعتذار واستغفار ، ويكون عفو ومغفرة . ويعود الصفو إلى جو البرلمان !

ويحدث مثل ذلك فى مجلس الشيوخ دون أن يعصم الشيوخ منه ما ينبغى أن يكون لهم من الوقار والرزانة ورجاحة الأحلام ، فإذا هم أيضا يثورون ويفورون ، ويهيجون ويموجون ، ويسىء بعضهم إلى بعض ويعتذر بعضهم إلى بعض ، ويغفر بعضهم لبعض !!

فإذا تركت الوزراء والشيوخ والنواب فسترى دقة الحس وحدة المزاج وسرعة

الغضب فى بيئات أخرى . فمصالح الحكومة تضيق بما يكتب عنها فى الصحف ضيقا شديدا ، وتمتلىء صدورها حرجا لأى نقد . وإذا بلاغات فيها شدة وحدة ، وفيها عنف وفيها تجاوز للقصد ، حتى النيابة أظهرت فى هذه الأيام شيئا من دقة الحس وحدة المزاج وسرعة الغضب هذه ، فأكثرت من دعاء الصحفيين إليها ، ومن سؤالهم والتحقيق معهم . وكانت معتدلة فى ذلك بعض الشيء . ولاحظت الصحف هذا النشاط فتحدثت فيه وفكرت فى أن تحتاط له ، وكلفت مجلس نقابتها فى أن يجد فى ذلك أسبوعا ، ثم يعرض عليها نتيجة هذا الجد إذا اجتمعت بعد أيام .

والصحف نفسها فيما بينها دقيقة الحس ، حادة المزاج ، يكاد يخرجها كل شيء عن طورها ، ويتجاوز بها الحلم الذى كانت قد ألفته واطمأنت إليه فأصبحت فى هذه الأيام لا يصبر بعضها لبعض ، ولا يثبت بعضها لبعض ، وإنما تضيق صحيفة بصحيفة فتسرع إلى النيابة أو إلى القضاء .

ورجال السياسة أنفسهم ، أولئك الذين لا يشتغلون بالصحافة اليومية ولا الأسبوعية ، وإنما يشتغلون بالسياسة العليا إن صح هذا التعبير قد أخذت صدورهم تضيق ويصل إليها الحرج مما يوجه إليهم من نقد كانوا يصبرون عليه من قبل . ولعلهم كانوا لا يلتفتون إليه ولا يحفلون به ، ولعلهم كانوا يلهون ببعضه حين يتفكهون ويتندرون ، ولكنهم الآن يضيقون به ، ويكرهونه أشد الكره ، ويسرعون إلى النيابة فيستعدونها على أولئك الكتاب الذين تجاوزوا معهم حدود ما يحبون !

حتى الأدباء يضيق بعضهم ببعض ، ويتنكر بعضهم لبعض ، ويأخذ بعضهم بعضا بأيسر الأشياء ، ويتمتعون بحس أدبى دقيق ، مسرف فى الدقة ، حاد مغرق فى الحدة . ومن ذا الذى لم يلاحظ هذه الغضبة أو إن شئت فقل هذا العتاب الحاد بين أديبين معروفين ، لأن أحدهما هم بنقد الآخر فلم يذهب فى هذا النقد المذهب الذى كان ينتظره صاحب الكتاب .

كل هذا يدل على أننا نتعرض فى هذه الأيام لأزمة خلقية حادة توشك أن تأتى على ما بيننا من صلات . ومهما يكن عذرنا واضحا ، ومهما تكن المحنة

السياسية ثقيلة طويلة ، ومهما تكن الأزمة الاقتصادية عنيفة حادة ، مرهقة محرقة ، ومهما يكلفنا هذا من الجهد فى احتماله والثبات له ، فإن من كمال الرجولة أن يكون حظنا من سعة الصدر ورجاحة الحلم ، والإعراض عن صغائر الأمور أعظم من هذا الحظ الذى بقى لنا الآن . فالصائم يعذر إذا ساء خلقه ، ولكن سوء الخلق لا يحمد له ، وهو لا يثاب عليه ، ولعله أن يفسد عليه جمال صومه ، وكذلك الذى يخضع للمحنة السياسية القاسية ، والأزمة الاقتصادية العنيفة يعذر إذا ضاق صدره ، وعجز عن أن يملك نفسه أحيانا ، ولكن ذلك لا يحمد له ، ولا يستحسن منه ، ولعله أن يفسر عليه احتماله للمحنة ، وثباته للأزمة ، ولعله أن يجعل مقاومته أضعف وأوهن ، ولعله أن يطمع فيه خصمه ويغريه به ، ولعله أن يحول بينه وبين ما يحب من العاقبة الجميلة التى ينبغى أن يظفر بها الأقوياء الصابرون .

وإذا كان الإغضاء عن المؤذيات والترفع عن صغائر الأمور خليقا بالرجل فى جميع أوقاته وأطواره ، فهو أجدر به وأوجب عليه وأكرم له فى أوقات الشدة والمحنة ، وفى أوقات الفتن والخطوب لأنه يصور قدرة الرجل على نفسه ، وضبطه لعواطفه وسيطرته على أهوائه وميوله ، واستعداده الصحيح لأن يكون رجل كفاح حقا ، يعرف كيف يداور الأيام ، وينتصر على الخطوب .

فما أجدر النواب والشيوخ والوزراء أن يصبر بعضهم على بعض ، وأن يغضى بعضهم عن بعض ، وأن يسع بعضهم بعضا وما أجدر النواب والشيوخ والوزراء والموظفين أن يحتملوا النقد فى شجاعة ورضى وابتسام . وما أجدر الصحف بنوع خاص أن تصبر للصحف وأن تقبل منها الآن ما كانت تقبله أمس قبل الأزمة وما ستقبله غدا بعد الأزمة . وما أجدر الساسة أن يؤثروا سعة الصدر ، ويرفعوا أنفسهم عن هذا الغضب الذى لا يليق بحلم الحليم . ثم ما أجدر الأدباء أن يبسم بعضهم لبعض ، بل أن يعبث بعضهم ببعض دون أن يفسد ذلك ما بينهم من صلات أما الكتاب فما أجدرهم أن يؤثروا الأناة والحكمة وضبط النفس ، وقهر الهوى وتحرى الحق فيما يكتبون .

ما أجدر المصريين جميعا ألا تخرجهم المحنة عن أطوارهم وألا تكدر الأزمة ما كانوا يتعزون به من مودة وحب وصفاء .